ثياب الوشي

بقلم حبيب زيات

لو قُدّر للحضارة العربية من يروي اخبار صناعاتها وفنونها التي تلقّتها مَهرَة الصناع البلديين في الشام ومصر والعراق عن حذّاق الروم والفرس ، لكان لنا في وصف بدائع النسيج وحده ما يجدر ان يُخطّ باقلام الفخر على صفحات الدهر . وقد بلغت منسوجات الشرق اقصى غايات الشهرة في الغرب واقبل الملوك والاغنياء ورجال الدين على اقتنائها والمباهاة بها والتجمل بمحاسنها ، حتى ندر في القرون الوسطى في اوربة ان لا تكون خزانة من خزائن القصور والبيع والاديار مزدانة ببعض طرائفها ، ولا تزال منها الى اليوم بقية محفوظة بغاية الحرص والاعجاب في بعض اصونة ذخائر المدن والكنائس في فرنسة .

ومن هذه المنسوجات الفائقة التي افتنّ العمال قديماً في حياكتها وتلوينها ثياب الوشي ، وقد سبقت الاسلام . ولما افتتح عمرو بن العاص مصر وجد القوم يتجملون بالوشي ، فبادر الى الاقتداء بهم . وقد وصفه بعض من رآه وسمعه يخطب على المنبر فقال : « رأيت رجلاً ربعة قصد القامة وافر الهامة ادعج ابلج عليه ثياب موشّية كأن به العقيان »[1] . ولم يحظ لم ينته الينا اقل وصف للوشي قبل الفتح او بعده سوى كلمات وجيزة بدرت عَرَضاً من افواه الشعراء والكتاب كقول ياقوت : « الوشي نوع من الثياب المنسوجة من الابريسم »[2] . وفي هذا التفسير من القصور والغموض ما لا يزيد علماً ولا يكشف سرّاً . وفي كتب اللغة آثار ضئيلة من اوصاف الوشي منها « المضرَّس » لنوع فيه صور كأنها اضراس ، « والمضلَّع » للمنقوش بمثل الضلع ، « والمخلَّب » للكثير التلوين ، « والكذّابة » لثوب يُنقش بالوان الصبغ كأنه موشّى . قال اسحق الموصلي وقد سأله المأمون عن مخارق وعلّوية من المغنيين : « ما ٥ما عند القديم الا مثل الكذّابة عند الوشي الاسكندراني »[3]

---

١) فتوح مصر واخبارها لابن عبد الحكم ١٤٠

٢) ارشاد الاريب ٧ : ٤٢٥

٣) السادس من كتاب بغداد لابن طيفور ٢٢٦

ويقال للصانع الذي يشي الثوب الواناً « المُشمج »[1].

ومن هذه اللمع يتحصل ان الوشي كما يدل عليه لفظه كان كثير الالوان ولذلك قال المعتمد لعبدالله بن خرداذبه ، وقد وصف له العود والملاهي : « كلامك كثل الثوب الموشيّ يجتمع فيه الاحمر والاصفر والاخضر وسائر الالوان »[2]. واكثر ما كانت تنقش فيه اشكال الازهار والرياحين ، وهو ما اشار اليه عبدالله بن المعتز بقوله :

وعلى الارض اخضرار واصفرار واحمرار
فكأن الارض وشي بالنت فيه التجار
نقشه آس ونسر ين وورد وجلنار[3]

ونظيره قول كشاجم في دير يوفان :

وكأن المنثور حلة وشي مثلما ما حوت خزوت التجار
في طراز الربيع حبكت ولكن شُبّهت وشيها يد الامطار
اقحوان وسوسن حسن النو ر وشيح منمنم وجلنار[4]

ولا يخفى جمال مثل هذه الاثواب التي اجتمعت فيها محاسن الطبيعة وزخارفها وتُلد فيها اجل النباتات والازهار. فلا بدع اذا افتتن بها الامويون وولعوا باتخاذ كل البستهم منها ، فتعددت اعمال الوشي في ايامهم ، وانتشرت في المدن والامصار ، وكثر الاقبال عليها بين الناس على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم. ويظهر ان احسن الوشي كان وشي الاسكندرية ، ولا عجب فان هذه المدينة اشتهرت قديماً بكثير من منسوجاتها الفائقة حتى كانت تحمل منها الى كل الامصار وكان وشيها يضرب به المثل في الحسن والاتقان . قال اسحق بن ابرهيم الموصلي : قلت في ليلة من الليالي (بيتين من الشعر ذكرهما) فلما اصبحت انشدتهما الاصمعي فقال : هذا الديباج الخسرواني هذا الوشي الاسكندراني[5] . ويستدل من رواية

---

١) معاجم اللغة كاللسان والتاج واساس البلاغة .
٢) مروج الذهب حاشية الكامل ١٠ : ٢٤
٣) الاغاني ٩ : ١٤٥
٤) الديارات للشابشتي خزانة برلين ١١٢
٥) الاغاني ٥ : ٧٥ – ٧٦

السيوطي ان وشي الكوفة كان يضارع وشي الاسكندرية ، اذا كان لا يفوقه وهو قوله : بالاسكندرية يعمل الوشي الذي يقوم مقام وشي الكوفة[1] . ومما يشهد بتعدد معامل الوشي بالكوفة وجلالة التجارة به فيها انه لما ذهب ابو طاهر القرمطي الكوفة سنة ٣١٢/٩٢٤ « كان في جملة ما حمل اربعة آلاف ثوب وشي »[2] . ولما عدد ابن الفقيه خصائص البلاد ذكر بينها الوشي الكوفي.[3]

ويبعد جداً ان لا تكون دمياط ودبيق وشطا وتنيس المدن التي اشتهرت بثيابها ومنسوجاتها الفائقة قد شاركت الاسكندرية في صناعة الوشي . وقد نص ابن واضح على تنيس فقال: « مدينة قديمة تعمل بها الثياب الرفيعة الصفاق والرقاق من الدبيقي والقصب والبرود والمخمل والوشي واصناف الثياب »[4]

ولليمن منزلة عليّة في فنون الحياكة . وامتازت صنعاء فيها بصناعة الوشي حتى ضرب بها الامثال في الغرب فقال الاديب ابو عمرو احمد بن دراج القسطلي من قصيدة له في منذر بن يحيى وورود صاعد اللغوي :

واهدت لهُ بغداد ديوان علمها هدية من والى وتحفة من حيّا
فكانت كمن حيّا الرياض بزهرها واهدى الى صنعاء من نسجها وشيا[5]

وقال بعضهم في وصف مدائحه :

شغلتك عن حسن السماع مدائح حسنت فما تنفك تطرب سامعا
حاكتك مثل مدائح الوشي الذي ما زال في صنعاء يتخذ صانعا[6]

ومن المدن الفارسية التي ينسب اليها الوشي فسا ويها « طراز الوشي المرتفع الذي ليس بساتر الآفاق كهو اذا كان مذهباً[7] واذا كان ساذجاً فكالذي يجهز واصبهان. »[8] وللعماد الاصبهاني في وصف الابله البغدادي الشاعر: « عذب اللفظ

---

١) حسن المحاضرة ٢ : ١٩٣
٢) تجارب الامم لابن مسكويه ، طبعة مصر ، ٥ : ١٤٦
٣) كتاب البلدان لابن الفقيه ٥٠
٤) كتاب البلدان لابن واضح اليعقوبي ، طبعة ليدن ، ١٢٦
٥) الذخيرة لابن بسام ١ : ٥٥
٦) احسن ما سمعت للثعالبي ، طبعة مصر ، ٤٤ — ٤٥
٧) المسالك والممالك لابن حوقل ٢١٣
٨) مسالك الممالك للاصطخري ١٥٢ و ١٩١

ارق من النسيم السحري واحسن من الوشي النشري »[1]

واشهر من كان مغرى بثياب الوشي من الامويين لا يؤثر ان تقع عينه على غيرها بين اهله وبطانته وحاشيته وخدمه سليمان بن عبد الملك الخليفة الشاب ، كما كان يدعو نفسه ، قال المسعودي :

« كان سليمان بن عبد الملك يلبس الثياب الرقاق وثياب الوشي وفي ايامه عمل الوشي الجيد باليمن والكوفة والاسكندرية ولبس الناس جميعاً الوشي جباباً واردية وسراويل وعمائم وقلانس وكان لا يدخل عليه رجل من اهل بيته الا في الوشي وكذلك عمّاله واصحابه ومن في داره وكان لباسه في ركوبه وجلوسه وعلى المنبر وكان لا يدخل عليه احد من خدمه الا في الوشي حتى الطباخ فانه كان يدخل اليه في صدرة وشي وعلى راسه طويلة وشي وامر ان يكفّن في ثياب الوشي المثقلة ».[2] واقتدى به امير مصر احمد بن طولون فكُفِّن في الوشي.[3] وجوهر القائد « فكُفِّن في سبعين ثوباً ما بين مثقل ووشي مذهب »[4] وفعل كذلك وزير المعز لدين الله يعقوب بن كلس « فكُفن في خمسين ثوباً من وشي وشربٍ دبيقي منها ثلاثون منسوجة بالذهب »[5].

وجرى الوليد بن يزيد على نمط سليمان فكان يتشح دائماً بثياب الوشي . ولما غنّاه مرة عطرد بعد اشخاصه من المدينة قال عطرد : « فوالله ما اقمته حتى شق حلة وشي كانت عليه لا ادري كم قيمتها فتجرد منها كما ولدته امه

---

١) وفيات الاعيان لابن خلكان ، طبعة مصر ، ٢ : ٢٥

٢) مروج الذهب ٢ : ١٠٨ — ١٠٩ ويراد بثياب الوشي المثقلة « المنسوجة بالذهب » وهذه اللفظة لم ترد بهذا المعنى في المعاجم وهو ما فسّرها به المقريزي في الخطط (٣ : ١٠) ومما يؤيد هذا التفسير قول ابن مسكويه : « خلع عليه خلع متادمة وكانت مثقلة بالذهب » (تجارب الامم ٥ : ٨٥) ولا شك انها مأخوذة من قولهم: « كل شيء نفيس مصون فهو ثقل . » وفي الاغاني : « ثبت ما في الخزانة من الثياب المثقلة الاسكندرانية والهاشمية » (٩ : ٦٧) وفيه ايضاً : « رأى المعتز وعليه وشي مثقل وجوهر » (٢١ : ٦٧) وفي الديارات للشابشتي : « جلس على سرير الذهب وعليه ثياب الوشي المثقلة » (١٦٩)

٣) سيرة احمد بن طولون للبلوي ، دار الكتب الظاهرية بدمشق ، رقم ٢٤٣

٤) الخطط ٢ : ٢٠٧

٥) الخطط ٣ : ١٠

والقاها نصفين . . . فان كان من غد جاءني رسوله في مثل هذا الوقت فاحضرني فلما دخلت عليه قال لي : يا عطرد غنني :

ايذهب عمري هكذا لم أنل بها ... ولم تشفِ قرح قلبي من الوجد

فغنيته اياه فشق حلة وشي كانت تلتمع عليه بالذهب التماعاً احتقرت والله الاولى عندها ثم القى نفسه في البركة . . . واخذت الحلة فوالله مـا قال لي احد دُونها »[1] وغنى ابو كامل الوليد بن يزيد ذات يوم « فطرب الوليد وخلع عليه حتى قُلنسية وشي مذهبة كانت على رأسه فكان ابو كامل يصونها ولا يلبسها الا من عيد الى عيد . »[2] وحدث حكم الوادي من المغنين ايضاً قال : « ادخلني عمر الوادي على الوليد بن يزيد وهو على حمار وعليه جبّة وشي وخفّ وشي »[3] وكان الوشي في ايام الامويين يخلع على النساء في مجالسهن وعلى الوصفاء . ولما جيء بنصيب الشاعر الى الامير عبـد العزيز بن مروان وهو وصيف نوبي ابن نوبيّين ، قال عبد العزيز : « قوّموا هذا الغلام . فقالوا عشرة عشرون ديناراً فقال : « ردّوه فاخرجوه ثم ردّوه في جبة وشي وردا . وشي »[4] . « ودعت عائشة بنت طلحة يوماً نسوة من قريش فلما جئنها اجلستهن في مجلس قد نُضِّد فيه الريحان والفواكه والطيب والمجامر وخلعت على كل امرأة منهن خلعة من الوشي والخز ونحو ذلك »[5] .

وتتابع الامويون على مثل هذا الشغف بالوشي حتى اذا قتل السفاح من قتل منهم « امر بهم وجرّ بارجلهم فألقوا على الطريق وان عليهم لسراويلات الوشي والكلاب تجرّ بارجلهم »[6] .

وما لبث العباسيون ان اقتدوا بهم في التأنق والتجمّـل بالثياب فكان السفاح اول من لبس الوشي منهم . واراد يوماً ان يستشير ابن هبيرة المخزومي

---

١) الاغاني ٣ : ٩٨ - ٩٩
٢) الاغاني ٦ : ١٤٤
٣) الاغاني ٦ : ٦٥
٤) الاغاني ١ : ١٢٢
٥) غاية الارب للنويري ٤ : ٢٦٦
٦) الاغاني ٤ : ٩٥

في من يوليه العهد من بعده فاستدعاه الى مجلسه قال ابن هبيرة : « رفع الستر ودخل وثبتُّ في مجلسي فاقام ملياً ثم خرج في ثوبي وشي ورداء وجبة فما رأيت احسن منه ومما عليه .»[1] ولا شك ان المنصور لم يقتدِ به في لباس الوشي لانه فيما قيل « كان يلبس الخشن وربما رقع قميصه .»[2] وعاتب مرة احد كتابه وهو محمد بن جميل وامر ببطحه « فلحظ سراويله فاذا هو كتان فانكر ذلك انكاراً شديداً وامر به فبطح وضربه خمس عشرة درة ، وقال : هذا جزاؤك على سوء اختيارك في لبس هذا السراويل فلا تعاود »[3].

وفي زمان المهدي والهادي عمّ لبس الوشي الرجال والنساء وكان الشاعر سلم الخاسر «يأتي باب المهدي على برذون قيمته عشرة آلاف درهم ولباسه الخز والوشي . »[4] ووصف ابو نواس جارية رآها بباب اسماء بنت المهدي فقال : « خرجت وعليها قباء وشي منسوج بالذهب وسراويل وشي اخضر منسوج بالذهب »[5] ولابي العتاهية في جواري المهدي بعد موته :

رُحنَ في الوشي واقبلنَ علينا للسوح[6]

وازداد الوشي انتشاراً في خلافة الرشيد . ولما اعرس بزبيدة « كان يخلع على الناس خلع الوشي المنسوجة . . . واحضر نساء بني هاشم وكان يدفع الى كل واحدة منهن كيساً فيه دنانير وكيساً فيه دراهم وصينية كبيرة فضة فيها طيب ويخلع عليها خلعة وشي مثقل . »[7] وكان شديد الكلف بالوشي قيل انه « هب ليلة من نومه فدعا بجمار كان يركبه في القصر اسود قريب من الارض فركب وخرج في دراعة وشي متلثماً بعمامة وشي ملتحفاً بازار وشي.»[8] ولما توفي كان في جملة ما خلفه « من الحلل الموشية اليمانية وغيرها المنسوجة بالذهب الف وثمانمائة

١) مروج الذهب ٨ : ٣٦
٢) الفخري لابن طقطقى ، طبعة مصر ، ١٤١
٣) كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ١٥٣
٤) الوافي بالوفيات للصفدي ، خزانة باريس ٢٠٦٥ ، ص ٢٥٠
٥) اخبار ابي نواس لابن منظور ١٦٦ – ١٦٧
٦) الفخري ١٦٣
٧) الديارات للشابشتي ٦٧
٨) الاغاني ٥ : ٣٠

حلة.»[1] وكفى بهذا القدر دليلًا على رواج صناعة الوشي في ايامه.

وكانت زبيدة مثله معجبة بهذا النسيج الباهر، وصنع لها الرفيع منه «حتى بلغ الثوب من الوشي الذي اتخذ لها خمسين الف دينار.»[2] وهو ما لا يكاد يصدق لكثرة ما دخل فيه من الذهب. ونشأ ابنها الامين على مثل هذا الولع بالوشي المثقل. حدّث الاصبهاني انه طرب يوماً لصوت غنّاه اياه مخارق، فخلع عليه «جبة وشي كانت عليه مذهبة ودراعة مثلها وعمامة مثلها تكاد تعشي البصر من كثرة الذهب»[3]. ثم بدا له فرفس قصعةً معلّقةً امر باحضارها بين يديه فوقعت في حجر مخارق وسال وَدَكُها على الخلعة حتى نفذ الى جلده. قال مخارق: «فلما رجعت الى منزلي جمعت كل صانع حاذق فجهدوا في إخراج ذلك الاثر منها فلم يخرج ولم انتفع بها حتى احرقتها فاخذت ذهبها.»[4]

ولما جلس المتوكل في قصره المعروف بالبرج سنة ٢٣٩/٨٥٣ «جلس على السرير المذهب وعليه ثياب الوشي المثقلة، وامر ألّا يدخل عليه احد الا في ثياب وشي منسوجة او ديباج ظاهر»[5]. وكان يلبس الوشي المثقل في ايام النيروز وهو ينظر الى اصحاب الحاجة اي المساخر يلعبون بين يديه[6].

ولم يكن الوشي لباساً وزينة للنساء والرجال فقط، بل كان تُجلَّل به الجدران والاروقة في القصور والدور ولا سيما قصور الخلفاء. ومما حفظ من وصف دار الواثق بالله، قول محمد بن الحارث بن بَشْخَر: افضيت الى دار مفروشة الصحن ملبّسة الحيطان بالوشي المنسوج بالذهب، ثم افضيت الى رواق ارضه وحيطانه ملبسة كذلك.[7]

ومن البديهي ان تكون المدن التي اشتهرت بصناعة الوشي، هي اكثر استعمالًا له. وفي الدولة الطولونية كانت الجواري المغنيات:

---

١) لطائف المعارف للثعالبي، طبعة ليدن، ٧٢

٢) مروج الذهب ١٠ : ١٤٤

٣) الاغاني ٢١ : ٢٣٩ — ٢٤٠

٤) الديارات للشابشتي ٦٦

٥) » » ١٥

ينبغزن في الحرير وفي الوشي والحبر[1]

كما قيل في رثائهن ، ولاحمد بن اسحق الجفر في رثاء ولد احمد بن طولون :

ابن ذاك الخز المضاعف والوشي وما استخلصوا من الكتان[2]

ومثله لاسحيل بن ابي هاشم :

واين ثياب الخز والوشي والحلى وارباجا ام اين تلك المطارف[3]

وفي اعياد الخلفاء الفاطميين ، كانت الخيل تقاد وعليها الوشي ، كما قال عمارة اليمني :

والخيل تعرض في وشي وفي نيق مثل العرائس في حلي وفي حلل[4]

ولا حاجة الى القول ان اثمان ثياب الوشي كانت تختلف باختلاف اسعار الحرير ومقدار دخول الذهب في نسيجها ، وقل جداً ان يُشار الى شيء منها ، وربما بلغ الجبة منها الخاصة الف دينار . روى ابن ابي اصيبعة نكتة عن بختيشوع ابن جبرئيل يجدر ذكرها في هذا الصدد قال :

« كان المعتز بالله قد اعتل في ايام المتوكل علة من حرارة امتنع معها من اخذ شيء من الادوية والاغذية ، فشق ذلك على المتوكل كثيراً واغتم به ، وصار اليه بختيشوع والاطباء عنده وهو على حاله في الامتناع ، فمازحه وحادثه ، فادخل المعتز يده في كم جبة وشي يمان مثقلة كانت على بختيشوع وقال : ما احسن هذا الثوب ، فقال بختيشوع : يا سيدي ما له والله نظير في الحسن وثمنه عليّ الف دينار ، فكل لي تفاحتين وخذ الجبة ، فدعا بتفاح فاكل اثنتين ، ثم قال له : تحتاج يا سيدي الجبة الى ثوب يكون معها ، وعندي ثوب هو اخ لها ، فاشرب لي شربة سكنجبين وخذه ، فشرب شربة سكنجبين ووافق ذلك اندفاع طبيعته . فبرأ المعتز واخذ الجبة والثوب وصلح من مرضه ، فكان المتوكل يشكر هذا الفعل ابداً لبختيشوع . »[5]

١) الخطط ٢ : ١٢٣

٢) » ٢ : ١٢١

٣) تكملة ديوان عمارة اليمني ٦١٤

٤) عيون الانباء ١ : ١٤١ — ١٤٢

ولا بأس ان نلحق هذه الملحة باخرى ورد فيها ايضا اشارة الى ثمن ثوبين من ثياب الوشي : « ذكر الشاه بن ميكال ان بعض البزّازين عرض على محمد ابن عبد الله بن طاهر ثوبي وشي فعرفهما وعلم انهما من ثيابه ، فاحضر ابرهيم ابن هارون النصراني قهرمانه ، فامره ان يحضر الثوبين اللذين صفتهما كيت وكيت فذكر انه لا يعرفهما وانه رجع الى الاحصاء فلم يجدهما فيه ، ورجع الى الديوان فوجدهما ثابتين فيه ، وكانا ابتيعا بالف وخمس مائة دينار . فسألت عن الخبر ، فأخبرت ان الكاتب في الخزانة اباعهما واسقط من الاحصاء عددهما . فامر بحبس الكاتب وقال لابرهيم ويلك تستكتب من يقدم هذا الاقدام ؟ فحلف انه ما وقف على مثل هذه الحال منه ، ولا عرف له مثل هذه الزلّة . فقال : ان كان الامر كذلك فليُطلق وامر له بخمس مائة دينار ، وقال له : تخفّف بهذه ، فاني اظن الحلّة حملتك على ذلك ، وردّ الثوبين على التاجر واطلقه . »[1]

ولا يُدرى متى بدأت صناعة الوشي بالضعف والانحطاط ، وهل سلم منها شيء بعد اجتياح التتر العراق والشام ، ونقل تيمور احسن الصناع وحذّاق الفنون الى سمرقند . ولم يُشر احد من المؤرخين المصريين الى الوقت الذي اخذت فيه بالتناقص والتلاشي من الاسكندرية خصوصاً وسائر المدن الصناعية عموماً ، ومن الشقاء والحسران ان لا تكون حُفظت لنا صُوَر من اقانين الوشي وازيائه لابسيه ، حين كان احدهم يتّشح به من قرنه الى قدمه بين قلنسوة وعمامة وجبة ورداء ودراعة وقباء وسراويل وخف ، وقد اجتمعت فيه ضروب الاصباغ والالوان كأنه قوس قزح على الارض ، او قطعة من قطع الروض .

ويقال لصانع الوشي وبائعه وشّاء ، وممن عُرف به من اهل الادب ابو يزيد الفارسي الفَسَوي ، ذكره ياقوت في ارشاد الاريب (٧ : ٢٢٥) ، وجماعة من المحدّثين اشار اليهم السمعاني في كتاب الانساب (ص٥٨٤) ، واشتهر بهذه النسبة ابو الطيب محمد بن احمد بن اسحق الاعرابي الوشّاء احد الادباء

---

١) الديارات للشابشتي ٥١

الظرفاء ، عدد ابن النديم مصنفاته[1] ، وبينها كتاب الموشى المطبوع في ليدن ومصر

ولا شك ان الوشي كان معروفاً مشتهرا في المغرب شهرته في المشرق . ومن البلاد التي برز اهلها وفاقوا غيرهم في صناعته مدينة مالقة ، قيل ان « فيها من ضروب الوشي العجائب ، ويصنع فيها الفخار المذهب والزجاج . »[2]

١) الفهرست ١٢٦

٢) مجلد من كتاب المغرب في حلى المغرب (رقم ١٠٣ م تاريخ) في دار الكتب المصرية ، ص ١٥